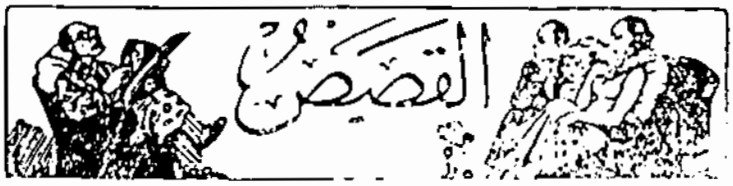

حاجتنا من الأرض

عمه ليو تولستوى

للأديب رمزى مزيغيت

زارت بنت المدينة يوما شقيقتها بنت الريف فى قريتها الصغيرة، وجلستا إلى الموقد تستدفئان وتتحدثان ... فراحت بنت المدينة وكانت زوجة تاجر غنى تمجد حياة المدينة الزاخرة بالمباهج والزخرف وتنعيه على أختها الفقيرة زوجة الفلاح المدقع، وتعرض بحياتها القذرة فى الريف بين الخنازير والأبقار . وأصغت بنت الريف إلى شقيقتها الحضرية طويلا ثم قالت — قد تكون حياتك يا أختاه أفضل وأنعم من حياتنا نحن الفلاحين، وقد تحصلون فى اليوم فوق ما تحتاجون ، ولكن لا تنسى المثل القائل « إن الربح والخسارة توأمان » ، فكثيراً ما يجد التاجر الغنى نفسه بين عشية وضحاها فقيراً يستجدى اللقمة من عابر سبيل ... إن حياتكم أجمل وأرق ولكن حياتنا آمن وأهدأ ... صحيح إننا لا نملك كثيراً من متاع الدنيا إلا أننا نجد والحمد لله ما نقتات به دائماً ... قد يكون عملنا شاقا مرهقاً إلا أنه شريف مضمون ... أما أنتم يا أهل المدينة المرفهين فجوكم ملىء بالمغريات ولا تأمنون على أزواجكن وزوجاتكم شر الغوايات ، كالميسر والخمر والنساء والقاتنات ...

وكان ياهوم زوج بنت الريف جالسا فى ركن قريب فأعجبه قول زوجته وقال يحدث نفسه — حقا أننا نحن معشر الفلاحين لا نجد لنا متسعا من الوقت للتفكير فى مثل هذه الأمور الفارغة. لقد عشت عمرى أكد وأكدح ، ولولا ضيق رقعة الأرض التى أملكها لكنت أسعد مخلوق ، وما خشيت حتى الشيطان . . »

على الموظف من الوقوع فيها لأن المقام ليس مقام « تحرير » وإنما « هو مقام تعبير » أيا كان . . والعجيب أن المسئولين لم ينتبهوا بعد إلى خطر هذه الظاهرة التى عمت فشملت المصالح كلها واستغرقت رسائلها حتى أضحت سخرية الساخرين ونادرة المتندرين ...

إن الجهل — الأسف الشديد — ضارب أطنابه فى كل مكان وقد نهض وزير عظيم يعمل على تعليم الشعب وتثقيفه؛ أفلا تقوم الرسالة بالدعوة إلى تعليم (المتعلمين) الذين يباهون بجهلهم بمبادئ لغتهم متى تخرجوا فى المدارس والجامعات وشغلوا وظائف الحكومة ؟

إن الرسائل المصلحية علم على جهلنا بلغتنا .. وجدير بالمسئولين أن يوجهوا إليها العناية والاهتمام حتى ننفض عنها غبار المستعمرين من ترك وأعاجم . . وحرى بنا أن نذكر فى هذا المقام كتاب الدراوين أمثال ابن القفع وابن المعبد ومن جرى مجراهما حين كانت لهذه الكتابة أهميتها وخطرها . . فإن هذا التراث الضخم قمين بأن يجعلنا نروى النظر فيما آلت إليه هذه الكتابة عندنا من انحطاط وتدهور

وبديهى أنا لا نطالب المصالح بأن يوجد على رأسها الكتاب الإنشائيون ؛ ولكنا نطالب بأن تخلو خطاباتها على الأقل من هذه الأساليب البالية وهذه الأخطاء البلقاء التى تدعو إلى الضحك وتحمل على السخرية وإنى تحضرنى بهذه المناسبة صيغة تعبير من التعبيرات التى تتصل بشئون الموظفين والتى لا يكاد خطاب مصلحى — فى هذا الشأن — يخلو منها وهى.

« نرجو التنبيه على الأفندى المذكور بكيت وكيت الخ ... »

فإن أقل وصف يوصف به لفظ الأفندى فى هذا المقام أنه لفظ غير مهذب ، وقس على ذلك باقى الأساليب المصلحية . .

وإنى لأرجو أن يكون فى هذه الكلمة العاجلة ما يحفز المسئولين على توجيه عنايتهم إلى علاج هذه الحال المؤسفة التى تدهورت إليها لغتنا فى المصالح والدواوين ...

كمال رستم

وكان الشيطان قابعا وراء الوقد ، وسمع كل ما قيل ، وسره زهو باهوم بنفسه وتحديه له — فقرر أن يعجه ما يطلبه من الأرض ويرى ما يكون . .

كان لباهوم رقعة أرض صغيرة تقع إلى جوار ضيعة كبيرة تمتلكها بارونة مجوز — وكانت هـــذه البارونة صارمة قاسية لا ترحم من تعتدى ماشيته على أملاكها . فكرهها أهل القرية ومن جملتهم باهوم ، إذ كثيراً ما كانت أبقاره وماشيته تعتدى على أرضها فيضطر إلى دفع غرامة ترهقه وتزيد فى سوء حالته المادية . وفى ذات يوم أعلنت البارونة عن رغبتها فى بيع أملاكها بأثمان بخسة ، فتسارع الناس واشترى كل منهم قدر طاقته . وقتر باهوم على نفسه وباع ماليديه من ماشية واشترى بما تجمع لديه مزرعة صغيرة لم تلبث أن جادته بمحاصيل وافرة فتحسنت حاله وكثر حساده وصاروا يطاقون ماشيتهم على زرعه . فصار يلجأ إلى العنف والقسوة والمطالبة بالغرامات والالتجاء إلى المحاكم ، فأثار عليه نقمة الأهالى وحقدهم وباتوا يكرهونه كرههم القديم للبارونة المجوز . وانتشرت يوما إشاعة بأن كثيراً من أهل القرية أخذوا يرحلون إلى بلد آخر . ولكن باهوم قرر بعد إعمال الفكر أن يبقى مكانه إذ وجد فى ذلك فرصة لزيادة ما يمتلكه من الأرض . ولكن فى ذات يوم طرق باب باهوم فلاح عابر وطلب قضاء الليلة فى بيته . فرحب به باهوم وقدم إليه العشاء ، ثم جلسا يتسامران ويتحدثان . قال الفلاح لباهوم — إنى عائد من البلاد الواقعة وراء نهر الفولجا ، وهى بلاد واسعة قليلة السكان وقد أخذ الناس يرحلون إليها لاستيطانها ، إذ تؤجر الأرض هناك لمن يشاء بأثمان بخسة جدا ، والتربة فوق ذلك خصبة تدر على أصحابها محاصيل وافرة . وخفق قلب باهوم لهذا الخبر وراح يحدث نفسه قائلا — لماذا يتحتم على البقاء هنا فى هذا البلد المزدحم — سأبيع كل ما أملك وأرتحل إلى تلك البلاد وأستأجر بالنقود أرضاً واسعة وأبدأ الحياة من جديد — وأخذ باهوم يستفسر من الغريب عن هذه البلاد ، وفى اليوم التالى سافر إليها ليتفقد أحوالها ، فلما تأكد له صدق قول الغريب عاد إلى قريتـــه وباع كل ما يملك وارتحل مع عائلته إلى مقره الجديد — وقضى هناك ثلاث سنوات يستأجر الأرض ويستثمرها حتى أصبح من الأغنياء — فبدأ يسأم التبعية لاالك أرضه وهفت نفسه إلى امتلاك أرض خاصة .

وفى ذات يوم هبط على باهوم غريب يطلب غذاء لحصانه ، وجلس الرجلان يتحدثان . وقال الغريب — إنى عائد من بلاد الباشكير حيث اشتريت ١٣ ألف فدان بثمن زهيد جدا — إن الأرض هناك لا قيمة لها ويكفيك أن تقدم الهدايا لرؤساء البلد وأن تشرب الودكا مع من يشربون فيعطونك الأرض التى تشاء —

واستفسر باهوم عن الطريق إلى هذه البلاد العجيبة — وفى الصباح اشترى بعض الهدايا وودع بنيه وزوجته واستصحب خادمه وسار إلى بلاد الباشكير بجد ونشاط . وبعد سبعة أيام بلغ الأرض الموعودة واتصل بالزعماء ووزع عليهم الهدايا ثم عرض حاجته — وسأل عن الثمن — فقال له الرئيس — إن أسعارنا محدودة — ألف روبل فى اليوم — ولم يفهم باهوم قول الرئيس فسأله — وأى مقياس هذا الذى تبيعون به الأرض ؟ فأجاب الرئيس — نحن نبيع الأرض باليوم — أى أننا نعطيك ما تستطيع أن تدور حوله فى اليوم مقابل ألف روبل — ولكن هناك شرط واحد وهو أنك تسير مع طلوع الشمس حول الأرض التى تختار على أن تعود إلى المكان الذى بدأت منه مع غروب الشمس . فإذا غربت الشمس قبل أن تعود ضاع مالك ولم تحصل على الأرض — وقبل باهوم هذا الشرط فرحا واتفقوا على أن يبدأ المسير فى صبيحة اليوم التالى فهو لا يريد أن يضيع عليـــه الوقت . وأوى باهوم إلى فراشه وهو يصور لنفسه أنه سيستطيع أن يدور حول قطعة كبيرة فيصبح من الأغنياء وكبار المالكين . ثم راح يرسم الخطط للمستقبل الحبيب — فتارة يزرع هنا وطورا أرشده إلى أرض الباشكير . ولما دقق النظر فيه وجد أنه انقلب من بحصد هناك ، وتارة أخرى يشترى الماشية ويستثمر صوفها ولبنها — وقضى ليلته على هذا الحال مسهداً أرقا ولم تغمض له جفن إلا قبيل الفجر بقليل — وعندئذ رأى له فى منامه زعيم القرية واقفاً خارج خيمته يقهقه ويضحك ملء شدقيه — فقام إليه ليسأله عن سبب ضحكه فإذا به يتبين فيـــه ذلك الفلاح الذى جديد إلى الفلاح الأول الذى قدم من بلاد ما وراء الفولجا وحملق باهوم فى الرجل وهو لا يصدق عينيه فإذا بالفلاح ينقلب إلى شيطان رجيم له قرون وحوافر ويرقد أمامه رجل حافىّ القدمين لا يرتدى

سوى قميص وسروال ، وليس فيه حس أو حركة . فلما تأمل الرجل الميت جيداً تبين أنه هو نفسه ، فهب من نومه فزعاً مذعوراً ، فرأى أن الفجر قد انفلق ... ونسي حلمه المزعج ونادى خادمه وخرج إلى القوم يستحثهم للخروج إلى السهول . وسار القوم حتى وصلوا إلى قمة تل مرتفع وهناك خلع الزعيم قبعته ووضعها على الأرض وقال لباهوم — من هنا تبدأ المسير . وها هي الأرض الشاسعة أمامك لا يحدها حد فاختر ما يحلو لك وعد إلينا عند الغروب ... فتهلل وجه باهوم بشرا وسروراً ووضع النقود في القلنسوة ، ثم خلع معطفه وشمر عن ساقيه وتزود بقليل من الطعام والماء وحمل على كتفه فأساً ، ووقف ينتظر شروق الشمس وهو يتأمل الأرض المنبسطة أمامه وقد أخذته الحيرة في أي اتجاه يسير. وبعد تردد قليل اختار جهة الشرق، وما إن أطلت الشمس برأسها من وراء الأفق حتى انطلق في اتجاهها بسرعة معتدلة . ولما قطع مسافة ميل أو أكثر حفر في الأرض حفرة وملأها عشبا . ثم أخذت خطاه تتسع كلما ارتفعت الشمس في قبة السماء. واشتد القيظ فخلع مئزره ونظر إلى الشمس فرأى أن النهار ما زال في أوله فانطلق إلى الأمام لا يحيد يمنة أو يسرة وهو يردد في نفسه : — كلما أمعنت في السير زاد نصيبي من الأرض ... ونظر باهوم بعد فترة خلفه فرأى القوم صغاراً كالنمل فقدر أنه قد آن له أن ينحرف عن خط سيره . وكان العطش قد أخذ منه فشرب قليلا وتابع سيره حتى أحس بالتعب والجوع فنظر إلى الشمس فرأى أن النهار قد انتصف ، فجلس قليلا وأكل . ثم مضى في طريقه الدائري مسافة أخرى طويلة ، وكان على وشك الانحراف إلى اليسار مرة أخرى عندما شاهد بقعة أرض كثيرة الخصب فلم يشأ أن يخسرها فدار حولها وحفر عند طرفها حفرة لتدخل في حوزته ... ثم نظر إلى الشمس فرآها تجري إلى المغيب ... فكبح جماح طمعه وأدار وجهه إلى ناحية الربوة وسار في اتجاهها مكملا دورته. ولكن التعب كان قد نال منه وشق عليه المسير ... كان يتوق إلى قليل من الراحة ولكنه لم يجرؤ على الجلوس فراح يجر رجليه جرا وهو يحدث نفسه — لقد أوغلت في السير حتى بعدت الشقة ... ياليتني لم أطمع بالكثير وا كتفيت باليسير ... فها هي الشمس على وشك المغيب ... فما العمل الآن وما زال أمامي شوط بعيد ... وهالته الحقيقة وخشي أن يفقد النقود والأرض مما تجمع قواه وطفق يجري والعرق يتصبب منه والدم يسيل من قدميه . فخلع حذاءه وملابسه قطعة قطعة ولم يترك سوى قطعة تستر عورته . واقتربت الشمس من خط الأفق وتحطمت نفس باهوم حسرة وندما وتأكدت له خسارته ... فراح يعدو من جديد وقد تقطعت أنفاسه وتدار كت دقات قلبه حتى خشي أن يموت قبل أن يصل إلى الربوة . إلا أن فكرة الموت لم تقعده عن السير فواصل الزحف حتى ترامت إلى أذنيه أصوات القوم ونداءاتهم يستحثونه على الجد فجمع قواه وتابع سيره . وكانت الشمس قد لمست خط الأفق ، وكان هو قد قارب هدفه ... ها هو يرى القوم يلوحون له بأيديهم؛ بل وها هي قبعة الرئيس التي وضع فيها نقوده . وإلى جانبها يجلس الرئيس ممسكا جنبيه من فرط الضحك . وفجأة تذكر باهوم حلم الليلة السابقة ولكنه قال — لقد أصبحت أملك رقعة كبيرة من الأرض ، فهل يعد الله في أجلي لأتمتع بثمرة تعبي .. ؟ وتطلع إلى الشمس فرآها تختفي وراء الأفق ... فقال .. آه لقد ضاع أملي ولن يقدر لي الوصول إلى القبعة ... واستجمع بقية قواه وتابع سيره ... إن القوم سيسخرون منه ولا شك إذا هو توقف عند هذا الحد ... ووصل الربوة ولكن عندما غابت الشمس عن ناظريه بالمرة . فصرخ صرخة يأس وكاد يسقط ... ولكنه سمع القوم يستحثونه من جديد ... فقدر أنهم ما زالوا يرون الشمس من موقفهم المرتفع ... فعاوده الأمل وأخذ نفسا عميقا واندفع يصعد الربوة حتى وصل إلى القبعة ... فرأى الرئيس جالسا إلى جانبها وهو يكاد ينفجر من كثرة الضحك . وعاودت باهوم ذكرى الحلم مرة ثانية وأدرك معناه فصرخ وتهاوى على الأرض باسطا يده نحو القبعة . وصاح الرئيس — ياله من رجل شجاع قدير. لقد أصبح يملك الآن أرضا جد واسعة وتقدم الخادم من سيده يريد رفعه ولكنه رأى الدم ينبثق من فمه وقد فارقته الروح . وتناول الخادم المعول وحفر حفرة على طول سيده ووارا ه فيها فكان كل ما احتاجه من الأرض لا يزيد على ستة أقدام .

رمزي مزيغيث